

لمحات من حضارة العرب في العلوم

الدكتور جمال الدين الزماني

ويؤدي الى غلاء الاثمان ومن جهة اخرى نرى ان احتياج الدولة الى فرض مكوس متزايدة تزيد على غلاء الاسعار اذ يجتهد المنتج أو التاجر في نقل المكوس على عاتق المستهلك .

كما تنبه العرب الى ان المدينة حاجة اقتصادية وحاجة دفاعية فهي المكان الذي يتربع فيه العيش والذي يتولد فيه التضامن الاجتماعي من اجل الحياة ولكن الترف والتضامن لا يعتبران الدافع الوحيد لتأسيس المدن بل تدعو الى ذلك حاجة الدولة فالمدينة نتيجة لمقدمتين احدهما اقتصادية وهي الحاجة الى الدعة والراحة والاخرى سياسية وهي الحاجة الى الدفاع . تنبه العرب الى كل هذه الشؤون الاقتصادية وحفلت بها مؤلفاتهم بل ان مقدمة ابن خلدون وصبح الاعشى في صناعة الانشا للقلقشندي واغانة الامة بكشف الغمة للمقرئزي ونحو ذلك وكان له شأن كبير في هذا المضمار الاقتصادي لا يمكن نكرانه أو نسيانه وألف العرب في السياسة منهم أبو زيد البلخي المؤرخ الجغرافي الذي كتب كتابين الكبير والصغير وكتب في السياسة المدنية أبو نصر الفارابي الفيلسوف المشهور ومن الكتب الهامة في هذا الباب كتاب سياسة المالك في تدبير الممالك لابن ابي ربيع وجاء في مقدمة الكتاب أن مؤلفه الفقه للمعتصم العباسي المتوفى سنة 228 هـ .

وبرع العرب في الكيمياء والصيدلة والطب وهم من الاوائل الذين اشتغلوا في علم الادوية وتحضيرها وظل العرب في النهضة العباسية يعتمدون في المارستان ودكاكين الصيدلة على اقرباذين الفه سابور بن سهل المتوفى عام 255 هـ حتى ظهر اقربازين أمين الدولة المتوفى عام 560 هـ .

وذكر الفرنجة أن العرب هم الذين اكتشفوا حامض

نبت العرب في الشعر نبوغا عظيما وادركوا فيه القدح المعلى والذروة العليا واستطاعوا ان يصلوا الى المعاني الدقيقة والخيالات الرقيقة والمعاني المبتكرة والاسلوب العذب الرصين والعبارة الطليقة الانيقة كما نبغ العرب في الفصاحة والبلاغة وضروب البيان ، وخاضوا في علم التاريخ والجغرافيا والسير ونشروا في ذلك التأليف الكثيرة والكتب العديدة بيد ان هذه الالوان من المعرفة اصبحت معروفة لدى الخاص والعام وامتد ذكرها في الآفاق وتغنى بانثرها البركيان ولكن هناك علوما ومعارف شتى اجادها العرب ايما اجدادها ولكن عنصر الادب والشعر طغى عليها فطمس الى حين معالمها حتى يخرج من ينفض عنها تراب السنين ويجلو عنها صدى الدهور ويستخرج منها تاريخا حافلا وماضيا زاهيا يتألق سناء ويسير الناس على هداه .

ومن ذلك ان العرب ألفوا مراجع في الاقتصاد السياسي مثل كتاب «الجواهر» واصنافها لمحمد بن شاذان الجوهري وقد ألفه في القرن الثالث الهجري للخليفة المعتضد المتوفى عام 279 هـ وكتاب «مزاجات الجواهر» وعمل الفولاذ وكتاب الاشارة الى محاسن التجارة للشيخ ابي الفضل جعفر بن علي الدمشقي ويبحث في جيد الاغراض ورديتها وغشوش المدلسين كما يشمل فصولا في حقيقة المال وانواعه واستثماره والكشف عن رديته وفاسده من الاحجار الكريمة وطرق تحصيل الاموال كما يضم وصايا نافعة للتجار على اختلاف طبقاتهم كما تنبه العرب الى اتصال الحاجات بالحضارة وتدرج الحاجات والانتاج واثرت الترف في طرق المعيشة وعلاقة الترف بالاثمان والانتاج ومساوي الترف الاخلاقية فضلا عن أن كثرة الترف تدفع الاسعار الى الغلاء فالطلب على مواد الترف طلب غير مرغوب

التريك وزيت الساج (حامض الكبريتيك) والبوتاس وروح النشادر ونترات الفضة واوكسيد الزئبق ونبغ فيهم ابن البيطار الذي تبحر في دراسة النبات والنف كتاب المغني في الادوية المفردة ومنه نسخ خطية في ليدن والمتحف البريطاني واكسفورد وباريس وكتاب جامع مفردات الادوية والاغذية وطبع في مصر في عام 1291 ثم ترجم الى اللغة الالمانية وكتاب ميزان الطبيب ونبغ ابن شاكر في العلوم الهندسية وألف ابن الهيثم كتابا في أوائل القرن الخامس للهجرة جمع فيه الاصول الهندسية والعديد من اقليدس والتبوتس ومن أشهر كتب المسلمين في الجبر كتاب الجبر والمقابلة لعنه الله عن العرب بشرحه وتفسيره والتعليق عليه واشتهر من علماء اسك في الاسلام أبو نصر البيلخي وسهل بن بشر وحنين بن اسحاق وغيرهم ونادى المسلمون بإبطال علم التنجيم حيث انه يقوم على أسس واهية ودعائم ضعيفة ومضوا يقيسون العروض ويرصدون الافلاك ويراقبون السيارات ويتبحرون في دراسة تأليف الاوائل والاواخر في علم الفلك .

ومن الطريف أن المسلمين فضلا عن هذه العلوم والمعارف الآتفة الذكر لم يغفلوا قيمة التدبير المنزلي وهو عندهم فرع من انحكمة العملية وتعريفه معرفته اعتدال الاحوال المشتركة بين الانسان وزوجته وأولاده وخداه وطريق علاج الامور الخارجة عن الاعتدال ومن الكتب التي تدخل في هذا النطاق كتاب الطبخ لابراهيم ابن المهدى وغيره لابن ماسويه وابراهيم بن العباس النصولي وحظه والرازي وغيرهم وبرز العرب في الاعمال المهنية والصناعات الدقيقة واهتموا بالتجارة واعتبروها من ضروريات العمران اذ أن الله سبحانه وتعالى جعل للانسان في كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضرورياته وحاجاته وكان منها الشجر فان له فيه من المنافع ما لا ينحصر فيما هو معروف لكل واحد وقد اعتبروا منافع البدو في الشجر يختلف عن منافع أهل الحضرة فأما أهل البدو فيتخذون منها العمد والاوئاد لخيامهم والهودج والرماح وانقسس والسهام سلاحهم وأما أهل الحضرة فالتسقف لبيوتهم والاغلاق لابيوابهم والكراسي لجلوسهم وتعرض العرب لصناعة الخطر وانشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدفات كما برع العرب في صناعة الحياكة والخياطة واعتبروا هاتين الصناعتين من ضروريات العمران ولذلك نبغ العرب في صناعة البناء وهي أولى صنائع العمران الحضري واقدمها وقد بدأت باتخاذ البيوت والمنازل للسكن المادي لدفع أذى الحر والبرد ثم تطورت

وتعددت على مر الازمان وداخلتها فنون شتى في التمنيق والتنجيد والزخرفة وما الى ذلك حتى عسا الفن الاسلامي يبهز العين ويخلب الفؤاد وبرع العرب كذلك في صناعة التوليد واشتهر في هذه الصناعة عدد كبير من السيدات وتسمى القائمة في ذلك منهن بالقابلة واستعير فيها معنى الاعطاء والقبول كان التقاء تعطيتها الجنين وكانها تقبله كما كانت تخفف عن الامهات آلام الوضع وتعينهن على الولادة الميسورة وكتب العرب في ضرورة تدخل الدولة في الحال الاقتصادي والتنمية الصناعية لانعاش وسائل العيش لان الدولة شديدة الارتباط بالعمران والحضارة .

وفي ذلك يقول ابن خلدون ان المصنائع واجادتها انما تظليها الدولة فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطليات اليها وما لم تطلبه الدولة وانما يطلبه غيرها من اهل الحضرة فليس على نسبتها لان الدولة هي السوق الاعظم وفيها تقاس كل شيء والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة مما يتفق منها كان اكثر ضرورة .

كما كتب العرب في التعاون مما يعتبر انيوم مادة جديدة للدراسة في الجامعات اعتبروا ان النوع الانساني لا يتم وجوده الا بالتعاون وان المجتمع اذا فقد التعاون تهاوى بنيانه وتداغت اركانه واذا كان الانسان لا يستطيع أن يعيش بنفسه فقط فهو احوج ما يكون الى تسخير جهوده لخدمة الآخرين ليفيد من ذلك تسخير الآخرين جهودهم لخدمته .

وبرع العرب كذلك في كتب المعاملات والآداب وتنظيم الحكم ويعتبر كتاب فتح القدير لكمال الدين الهمام وصبح الاعشى للقلشندى وكتاب الاحكام السلطانية لهماوردي من أخصب الكتب في هذا الباب أما الرحلات فظهر فيها مؤلفون نابغون نابغون تذكر منهم القزويني الذي ظهر في القرن السابع للهجرة ويرجع نسبه الى الامام أنس بن مالك ومن أشهر مؤلفاته عجائب المخلوقات في الفلك والجغرافيا الطبيعية عند العرب ووصف ما فيها والارض وما عليها ورتب كلا من الحيوانات والنباتات على حروف المعجم وكتاب آثار البلاد واخبار العباد الذي طبع في غوتنجن عام 1850 م وابن بطوطة صاحب الرحلات المشهورة وله كتاب تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاشعار وقد اهتم المستشرقون اهتماما بالغا بهذه الرحلات وترجموها الى اللغات الاجنبية وعلقوا عليها تعليقات كثيرة وبدر الدين الروكش المتوفى عام 794 هـ وصاحب كتاب القدر الوافر فيما يحتاج اليه المسافر . وهكذا كان فضل العرب سابقا شاملا وكان مجدهم

لا يقتصر على الشعر والادب وتراث امرىء القيس
والنابغة والاعشى وغيرهم في العصر الجاهلي او حسان
ابن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما في صدر الاسلام
والاخطل وجريير والفرزدق في العصر الاموي وبشار
والمتنبى وابن العلاء المعري وابن تمام في العصر العباسي
وابن خفاجة وابن زيدون وابن سهل في الاندلس بل
لم يقتصر مجدهم على ما كتبه الجاحظ أو ابن العميد
أو عبد الحميد أو من اليهم من الكتاب العرب او
المستعمرين انما تطاول مجدهم حتى شمل العلوم
البحث والعلوم التطبيقية والفنون الجميلة والفنون
الانابغة وتطور عملهم الى المعامل وآنية الاختبار وروائع
الاحماض والبخار وضروب الصناعات الثقيلة التي
تمخر البحر أو تدب على الارض او يحارب بها الاعداء
وكان لهم شرع وقانون يقصيهم عن الخطأ ويردهم عن
الخطأ ويوضح لهم منازل الخلل وهو الشرع الاسلامي

والدين الحنيف والكتاب المبين الذي لا يأتيه الباطل من
بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وقد
استطاعوا بفضل تمسكهم بأهداب هذا الدين العظيم
وهذا الشرع السسوى المستقيم ان يرسخوا أقدامهم
ويرهبوا اعداءهم ويمدوا سلطانهم ولم يكن الدين حائلا
بينهم وبين بلوغ هذه الغايات النبيلة او الوصول الى هذه
الاهداف الكريمة انما كان عوناً لهم على العلم وحافزاً لهم
على المعرفة فاذا العصي من الامر يسهل واذا القصي من
الابل يقرب واذا العسير من الخطب يهون وما احوجنا
اليوم ونحن ننفذ عن ابداننا أنقال الماضي ونحطم قيود
انتقليد البغيض ان نسترجع أمجاد آبائنا الاولين في
هذه المعارف والعلوم حتى تكون لنا عبرة واسوة حسنة
وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

جمال الدين الرمادي

